صالح عليه السلام

هلكت عادٌ بذنوبها، فأورث الله ثمودَ أرْضَهم وَدِيارَهم، فخلَفوهم فيها، وعَمَروها أكثر ممَّا عَمَروها، وفجَّرُوا العيون، وغَرَسُوا الحدائق والبساتين، ونحتوا من الجبال بيوتاً، وأسنوا غَوَائِلَ[1] الدهر، ونوائبَ الحدَثان وكانوا في سَعَةٍ من العيش، ورغَد، ونعمة وتَرَف، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يَحمَدوا له فضلَه، بل زادوا عُتُوًّا في الأرض وفساداً، وبُعداً عن الحقِّ، واستكباراً، وعبدُوا الأوثانَ من دون الله، وأشركوا به، وَأعْرَضوا عن آياته وظنُّوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السَّعَة متروكون.

بعث الله إليهم صالحاً، من أشرفهم نسباً، وَأوْسَعهم حِلْماً، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحَضَّهم على توحيده؛ فهوَ الذي خلقهم من تراب، وعمَر بهم الأرض، واستخلَفهم فيها، وأسبغ عليهم نِعَمَه ظاهرة وباطنة، ثم نهاهم أن يعبدُوا الأصنام من دُونه، فهي لا تملِكُ لهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا تُغْني عنهم من الله شيئاً.

ذكّرَهم بأواصر القُرْبى التي تربِطَه بهم، وَوَشَائج[2] النَّسَب التي تصل بينه وبينهم، فهم قومُه وأبناء عشيرته، وهو يحبُّ نفعَهم، ويسعَى في خيرهم، لا يضمر لهم سوءاً، ولا يريدُ بهم شرًّا، وأمَرَهم أن يستغفروا الله، ويتُوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب، واجترحوا[3] من إثمٍ، فهو لمن دعاه قريب، ولمن سأله مجيب ولمن أناب إليه سميع.

صَمَّت منهم الآذانُ، وغُلِّقت القلوب، وعميت الأبصار، فأنكروا عليه نبُوَّته، وهزئوا بدعوته، وزعموا له أنها نابيةٌ عن الحقِّ، بعيدة عن الصدق، ثم لامُوهُ فيها، وأنَّبُوهُ على صُدورها منه، وهو الرَّاجحُ عَقْلاً، الصائب رأياً، وقالوا: يا صالح، عهدناك ثاقبَ الفِكْر، مصيبَ الرَّأي، وقد كانت تلوحُ عليك مخايلُ الخير، وأمارات الرشد، وكنّا

---

(١) غوائل جمع غائلة وهي الفساد والشر.

(٢) الوشائج: جمع وشيجة وهي القرابة المشتبكة المتصلة.

(٣) اجترح: اكتسب.

نَدَّخرك لُملِمَّات الدّهر، تضيءُ ظلماتها بنور عقلك، وتحلَّ معضلاتها[١] بصائب رأيك، وكنا نرجو أن تكون عُدْتَنَا حين يَحْزُب[٢] الأمر، ويشتدُّ الخطب، فنطقْتَ هُجْراً[٣]، وأتيت نُكْراً، ما هذا الذي تدعونا إليه؟ أتنهانا أن نعبُدَ ما كان يعبد آباؤنا، وقد دَرَجنا عليه، ونشأنا متمسكين به! إننا لفي شكّ مما تدعونا إليه مُرِيب، لا نطمئنّ إلى قولك ولا نثق بصدق دعوتك، ولن نترُك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هَواك وَزَيْغِك[٤].

حَذّرَهم مخالفته، وأعلن فيهم رسالته، وذكّرَهم بما أسبغ الله عليهم من نِعمه، وخَوَّفهم بَأسَه وَبَطْشَه، وأبان لهم أنّه لا يقصد من وراء دعوته إلى نفع، ولا يطمح في مغنم، أو يتطلعُ إلى رياسة، وهُو لم يسألهم أجراً على الهداية، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، وإنما أجرُه على الله ربِّ العالمين، درءاً[٥] لكلّ شبهة قد تُسَاور نفوسهم ودَفْعاً لكل شكّ قد يَجُولُ في خواطرهم.

آمن به بعضُ المستضعفين من قومه، أمّا الملأ الذين استكبروا فأصَرُّوا على عنادهم، وتمادَوْا في طغيانهم، واستمسكوا بعبادة أوثانهم، وقالوا له: إنك قد خُولطتَ في عقلك، وضاع صوابُك، وما نظنُّ إلا أن أحداً سَلّط عليك شيطانه، أو أعملَ فيك سِحْره، فأصبحت تهرِفُ[٦] بما لا تعرف، وتنطق بما لا تفقه، فلست إلا بشراً مثلنا، وما أنت بأشرفنا نسباً، أو أفضلنا حَسَباً، أو أوسعنا غنًى وجاهاً، وفينا مَنْ هُو أحقُّ منك بالنبوَّة، وَأَجْدرُ بالرِّسالة، فما حملك على انتهاج هذه الطريق، وسلوك تلك السبيل، إلا رغبتك في تعظيم نفسك وتطلعك إلى الرياسة على قومك!

حاولوا صدَّه عن دينه، وصرفه عن دعوتِه، وزعموا له أنهم إن أتبعوه حادوا عن الصراط المستقيم، وخالفوا الطريق القويم، فأعرض عن بُهْتانهم، وَلم يستمع إلى غوايتهم، وقال: يا قوم، إن كنتُ على بيِّنَة من ربي، وآتاني منه رحمة، ثم اتبعت

---

(١) المعضلة: المسألة المشكلة التي لا يُهتدى لوجهها.
(٢) حَزَبَ: اشتد.
(٣) الهُجر: الهذيان والقبيح من القول.
(٤) زاغ: مال عن القصد.
(٥) درأ: دفع.
(٦) تهرف: تهذي.

طريقكَم، وسرتُ في سبيلكم، وعصيت ربي، فمن يمنعني من عذابه أو يعصمني من عقابه؟ إن أنتم إلاّ مُفترون.

فلما وجدوا منه استمساكاً برأيه، واعتصاماً بحقِّه، خاف المستكبرون من قومه أن يكثُرَ تابعوه، ويعظم ناصرُوه، وعزَّ عليهم أن يكون المرشد للقوم، والموئلَ[١] عند اشتداد الخطب، والكوكب المنير إذا ادلهمّ الأمر، فينصرف الناس عنهم، ويفْزَعون إليه في كلِّ شأن، ويطرقون بابه كلّما حزبهم[٢] أمر، ولا شكَّ أنه سيهديهم إلى ما يقرِّبهم إلى الله، ويصدّهم عما يُثْنيهم عنه، فخافوا زوالَ دولتهم، وذهاب سلطانهم، وأرادوا أن يظهروا للناس عَجْزَه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبيَّنون بها صدقَ دعوته، ومعجزةٍ ظاهرة تصدِّق رسالته. فقال لهم: هذه ناقة لها شِرْبٌ[٣] ولكن شرْبُ يوم معلومٍ فذرُوها تأكل في أرض الله.

لم ير الناسُ قبلاً ناقةً تستأثر يوماً بمائهم، ولم يعهدوا غيرها يَكُفُّ يوماً عن شِربهم؛ ولا شكَّ أن صالحاً قد عهد فيهم إصراراً على الكفر، واستمساكاً بالباطل، وعلم أن المُنكِر يُفزعه ظهورُ حُجَّة خصمه، ويخيفه وضوحُ برهانه، بل يحرِّك كامنَ غيظه ومستورَ حقده قيام شاهده، وقوةُ آيته، لذلك خاف إقدامهم على قتلها، وحَذَّرَهم الفَتك بها، فقال لهم: لا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذابٌ قريب.

مكثت الناقةُ بينهم زمناً تأكلُ في أرض الله، تَرِدُ الماء يوماً، وتصدُّ عنه يوماً، ولا شك أن قيامَها قد استمال إليه كثيراً من قومه، إذ استبانوا بها صدقَ رسالته، وأيقنوا بصحة نبوّته، فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، وخافوا على دولتهم أن تَبِيد[٤]، وعلى سلطانهم أنْ يزُول، فقالوا للمستضعفين من قومه ـ وهم الذين أشرق نورُ الإيمان في قلوبهم، فعمرت به صدورُهم، وانصاعت إليه أفئدتهم ـ: أتعلمون أن صالحاً مُرْسلٌ من ربّه؟ فقالوا: إنا بما أُرْسل به مؤمنون. فلم تلنْ قناةُ القوم، ولم يخفِّفوا من غُلوائهم[٥]،

(١) الموئل: المرجع والملجأ.
(٢) حزبهم أمر: أهمهم وأصابهم.
(٣) الشِّرب: النصيب من الماء.
(٤) باد: هلك وانقرض.
(٥) الغلواء: الغُلو.

بل أعلنوا كفرهم، وصارحوهم بتكذيبهم، وقالوا: إنا بالذي آمنتُم به كافرون.

لعلَّ هذه الناقة كانت ضخمة الجسم، متميزة الشكل، فأرهبت أنعامهم، وأخافت إبلهم، فكرهوا لذلك مُقامها بينهم، وقد تكونُ حالت بينهم وبين الماء حين اشتدادِ الحاجةِ إليه؛ إذ كان لها شِرْبٌ ولهم شِرْبُ يوْم معلومٍ.

وقد تكون نَوازي[١] الشرّ قد دفعتهم إلى إخفاء آيته، وطَمْس معالم حجته لأنهم رأوها تجذبُ القلوب نحوه، وتستميل النفوس، فخافوا أن يكثرَ المؤمنون به، وينتشر أنصاره وتابعوه.

قد يكون هذا أو ذاك، أو كلّ هذا قد حملهم على عَقْرها[٢]، ودفَعهم إلى قتْلها، رغماً من تحذيرهم بالعذاب، وتوعُّدهم بالهلاكِ إنْ مسُّوها بسوء.

ما أظنُّ إلا أن القومَ حسبوا هذه الناقة خطراً جسيماً، وشرًّا مُستطيراً، ففكَّروا طويلاً، وأمعنوا كثيراً، ولا أخالهم إلاّ هَابوا قَتْلَها، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها. وكلما هَمُّوا بها قَفَلوا راجعين وأدبروا خائبين.

وبقي القوم يَدْفعُهُمُ الشرّ، وتمنعهم الرّهْبة، لا يجْرُؤ أحدهم على إيذائها ولا يتقدم وَاحد إلى مسّها، فاستعانوا بالنساء يبذلن ما يملكْنَ من دَلّ[٣]، ويغرين بما فيهنّ من جمال، وَالمرأةُ إذا أمَرَتْ كان الرِّجالُ طوعَ أمرها، وإذا تمنَّت تسابقوا إلى تحقيق أُمنيتها، فها هي ذي صَدُوق بنت المُحَيّا، ذات الحسب والمال، تعرض نفسها على مصدع بن مهرج، إنْ هُو عَقَر الناقة، آية صالح البيِّنة وحجَّته البالغة، وتلك هي عُنَيزة العجوز الكافرة تجتذب قُدَار بن سالف إليها وتعرض عليه إحدى بناتها، ولا تطلب إليه بذلاً، ولا تسأله عطية أو مالاً، إلاّ عقر الناقة التي تستميل القلوب، وتشعل جذوَة الإيمان، وهي مع ذلك تقض[٤] مضجعهم، وتستأثر بشربهم، وتنفر منها أنعامُهم.

---

(١) نوازي: جمع نازية. وهي الحدة والنشاط.

(٢) عقر البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقط ويتمكن من ذبحه وعقر الحيوان: ذبحه.

(٣) الدل: الحالة التي يكون عليها الإنسان من سكينة ووقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. ويقال: امرأة ذات دل: أي ذات شكل تُدِلُّ به، أي تظهر الجرأة على الرجل في تكسُّر وملاحة.

(٤) قض المضجع: اخشوشن وكأن به تراب وحصى فلا يهنأ فيه النوم.

فصادف هذا الإغواءُ هوًى في نفسهما، ورغبةً في فؤادهما، وزادهما بأساً وقوة، وأفاض عليهما إقداماً وجُرْأة، فسعيا بين القوم يلتمسان مَنْ يؤازِرُهما، ويبحثان عمَّن يُعَاضِدُهما، فاستجاب لهما سبعة آخرون، وانطلقوا إلى الناقة يَرْصُدونها، وخرجوا يرقبونها، فلمَّا صدَرَت من وِرْدها، ورجعت عن مائها، كمن لها مصدع بن مهرج، فرماها بسهم انتظم[١] عَظْمَ ساقها، وابتدرها[٢] قَدَار بن سالف بالسيف، فكشف عن عُرْقوبها[٣]، فخرَّت على الأرض، ثم طعنها في لَبَّتها[٤] فنحرها[٥]! وأزاحا عن كاهلهما همًّا ثقيلاً، وحِمْلاً عظيماً، ورجعا يزُفان إليهم البُشْرى، واستقبلهما الناس كما يُستقبل القائد الظافر، أو الملك الفاتح وهللوا لمقدمهما، ونسجوا لهما أكاليل المدْح، وأضفَوْا عليهما جميل الثناء.

عقروا الناقة، وعَتَوْا[٦] عن أمر ربهم، وكشفوا عن ذات أنفسهم، واستخفُّوا بوعيده، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من المرسلين.

فقال لهم صالح: قد حَذَّرتكم إن أصبتموها بأذى، أو مسستموها بسوء؛ ولكنكم قد اجترحتم الذنْبَ، واقترفتم الإثم، فتمتَّعوا في داركُم ثلاثة أيام يأتيكم بعدها العذاب، ويُحلُّ عليكم في نهايتها العقاب، ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب.

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد، ترغيباً لهم في الإنابة إلى الله، وحثًّا لهم على الإصاخة إلى دعوته، ولكن الشكُوك ما زالت مُتَأصلة في نفوسهم، والأوهام متسلطة على أفئدتهم! فلم تُغنِهم النذُر، ولم يثوبوا إلى رشدهم، بل ظنُّوا وَعِيده كَذِباً وَمَيْناً، وتحذيره زوراً وبهتاناً، فتمادوا في استخفافهم، وسألوه أن يعجِّل بعذابهم، ويأتيهم بما وعدهم، فقال: يا قومِ، لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، لولا تستغفرون الله لعلكم تُرْحَمون!

---

(١) انتظم الأشياء: جمعها وضم بعضها إلى بعض.
(٢) ابتدر: عاجل.
(٣) العرقوب من الدابة: ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.
(٤) اللَّبة: موضع القلادة من العنق.
(٥) نحر: ذبح ـ ضرب في النحر وهو أعلى الصدر.
(٦) عتا: جاوز الحد.

ولكنهم تمَادَوْا في الضلال، واستسلموا لنَوْازِي الشر، فقالوا: اطَّـيَّرَنا[١] بك وبمن معك.

واجتمع نَـفَر من قومه، وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جُنْح الظلام، ويباغتوه[٢] وأهله والناسُ نِيَام، فيوقعوا بهم من غير أن يراهم أحد، فأجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون ذلك سِراً مكتوماً، لا يذيعونه ولا يتناقلونه.

بيَّنوا له الشر، وأضمروا له ولأهله القتل، ظناً منهم أن ذلك يعصمهم من العذاب، ويُنجيهم مما سيحلُّ بهم من عقاب، ولكن الله لم يُمهلهم، بل أحبط مكرهم، وَرَدَّ إليهم كيدهم، ونجَّاه مما أرادوا به، وأنقذه والذين آمنوا معه من العذاب، وأنزل بالكافرين عقابه، تصديقاً لوعده، ومظاهرةً لنبيه، فأخذتهم الصاعقةُ بظلمهم فأصبحوا في ديارهم جَاثمين[٣].

ولم يمنعهم ما شادُوا من قصور شامخة، وما جمعوا من أموال وافرة، وغَرَسوا من جنات واسعة، ونحتوا من بيوت آمنة.

ورأى صالح ما حلَّ بهم؛ إذ أصبحتْ جُثَـثُهم هامدة، وديارهم خاوية فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه، والحسرة تقطِّعُ نياطَ قلبه ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[٤].

---

(١) تَطيَّر: تشاءم.
(٢) باغت: فاجأ.
(٣) جثم: لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض.
(٤) سورة: الأعراف، الآية: ٧٩.